

**Origin of Arab Sufism. Is It Islamic or Western?
Study in Preliminaries.**

**مرجعية التصوف العربي، إسلامية أم أجنبية؟
دراسة في المقدمات**

د. محايي كريمة

المدرسة العليا للأساتذة بشار، الجزائر.

Karimamehaoui.1ik@gmail.com

قبل للنشر في: 2018/12/10

قدم للنشر في: 2018/07/11

Abstract:

During the study of the Islamic Mysticism phenomenon, some of orientalises were not convinced of the authenticity of this phenomenon at the Muslims and brought it back to non-Islamic and non-Arabic origins. Some of them saw that it belongs to the Greek origins and linked it to the concept of Platonic "pantheism" by citing the influence of Muslims on Greek philosophy. Some consider that it influenced by Indian Buddhism and others suggest that it belongs to the Christian monastic origin. In this case, the intellectual struggle has increased between supporters and opponents, and led to the validation and scientific study of the subject by highlighting the weaknesses in each direction.

This research focuses on the introductions of Sufism, Between Islamic reference and foreign monuments According to three fields: the first field includes the introductions And the summarize of narrators prevalence and preachers and the prevalence of worship Places. And the features of Sufism at the second century AH. The second field contains the Islamic reference so that I focused on the avoidance of the world and concern for religion, Tibet and worship, devotion to the love of God, and the call for piety and avoiding sins.

The third field will be about foreign influences, divided into Greek influence, Christian influence, Indian Buddhist influence, and Persian influence, I conclude my study with a summary of my most important findings.

Key words: Mysticism, orientalises, Greek, Buddhism, Sufism, love ,God.

الملخص :

ظاهرة التصوف الإسلامية ظاهرة مثيرة للجدل وبخاصة في نشأتها؛ وأثناء دراسة عدد من المستشرقين لهذه الظاهرة، لم يقتنعوا بأصالة هذه الظاهرة عند المسلمين وأرجعوها إلى أصول غير إسلامية وغير عربية، فمنهم من رأى أنها تعود إلى أصول يونانية وربطها بمفهوم "وحدة الوجود" الأفلاطونية، مستدلين بتأثر المسلمين بالفلسفة اليونانية، ومنهم من اعتبرها متأثرة بالبوذية الهندية، ومنهم من جعل أصلها الزهبانية المسيحية، وقد تأجج الصراع الفكري في هذه القضية بين مؤيد ومعارض، وداع إلى الثبوت والدراسة العلمية للموضوع مبرزاً جوانب الضعف في كل اتجاه.

وبناء على هذا يتمحور هذا البحث حول مقدمات التصوف بين المرجعية الإسلامية والآثار الأجنبية، وفق محاور ثلاثة؛ أتناول في المحور الأول المقدمات وأجملها في انتشار القصّاص والوعاظ، وانتشار الرّباطات، وملامح التصوف عند زهاد القرن الثاني الهجري. المحور الثاني حول المرجعية الإسلامية وأتناول فيه التجاني عن الدنيا والحرص على الدين، التبتل والعبادة، والتفاني في حب الله، والدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام. أما المحور الثالث فسيكون حول الآثار الأجنبية، وأقسمها إلى الأثر اليوناني، والأثر المسيحي، والأثر البوذي الهندي، والأثر الفارسي. وأختتم بخلاصة أدرج فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

كلمات مفتاحية: التصوف، اليونانية، البوذية، الرهبانية، مقدمات، حب، الزهد.

العرض:

التصوف ظاهرة روحية يتدرّج بها المؤمن في عوالم القرب من الخالق عز وجل. وهو الرغبة في إيجاد طريقة مثلى لنيل رضا الله والتقرب منه بواسطة العبادة والزهد. تطور التصوف عند العرب ليصبح علماً له مبادئه وأسسها التي يقوم عليها. لكنه لم يظهر من فراغ، ولم يظهر بشكله النهائي فجأة في لحظة من اللحظات، وإنما سبقته مقدمات وإرهاصات أدت إلى ظهوره وتطوره فيما بعد.

اختلف كثير من النقاد والدارسين والمستشرقين في تحديد أول ظهور للتصوف في التاريخ العربي الإسلامي، فمنهم من نسبته إلى العصر الأموي ومنهم من جعل أول ظهور له كان على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، وآخرون أرجعوه إلى أهل "الصقّة" صحابة رسول الله، ومن المستشرقين من رده إلى العصر الجاهلي. لكن أوجه الآراء تجعل أول ظهور له، أو بالأحرى مقدماته، في العصر العباسي الأول، وتجوّزا نقول في نهاية العصر الأموي، محددين ذلك بالحسن البصري (ت 110هـ) ورابعة العدوية (ت 180هـ). وبذلك تكون ظاهرة الزهد والتنسك التي انتشرت في العصر العباسي الأول، أول مقدمات التصوف التي سرعان ما تطورت في العصر العباسي الثاني لتصبح ذات أسس ومبادئ سميت فيما بعد بالتصوف.

أثناء دراسة عدد من المستشرقين لظاهرة التصوف الإسلامية، لم يقتنعوا بأصالة هذه الظاهرة عند المسلمين وأرجعوها إلى أصول غير إسلامية وغير عربية، فمنهم من رأى أنها تعود إلى أصول يونانية وربطها بمفهوم "وحدة الوجود" الأفلاطونية، مستدلين بتأثر المسلمين بالفلسفة اليونانية، ومنهم من اعتبرها متأثرة بالبوذية الهندية، ومنهم من جعل أصلها الرهبانية المسيحية، وقد تأجج الصراع الفكري في هذه القضية بين مؤيد ومعارض، وداع إلى التثبّت والدراسة العلمية للموضوع مبرزاً جوانب الضعف في كل اتجاه.

وبناء على هذا تتمحور مداخلتي حول مقدمات التصوف بين المرجعية الإسلامية والآثار الأجنبية، وفق محاور ثلاثة؛ أتناول في المحور الأول المقدمات وأجملها في انتشار القصّاص والوعاظ، وانتشار الرّباطات، وملامح التصوف عند زهاد القرن الثاني

المحجري. المحور الثاني حول المرجعية الإسلامية وأتناول فيه التجاني عن الدنيا والحرص على الدين، التبتل والعبادة، والتفاني في حب الله، والدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام. أما المحور الثالث فسيكون حول الآثار الأجنبية، وأقسمها إلى الأثر اليوناني، والأثر المسيحي، والأثر البوذي الهندي، والأثر الفارسي. وأختتم بخلاصة أدرج فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

1. المقدمات

للتصوف مقدمات ظهرت قبله بزمان طويل، مهدت له وأدت إليه، فسار على هديها عدد كثير من الزهاد والعباد أو ما سمي بالنسك، الذين اختاروا الآخرة، وتركوا الدنيا وزخرفها، مكثفين بما يسد الرمق من طعام، وما يستر العورة من ثياب، وكثير منهم من التجأ إلى أماكن نائية عن المدن بنوا فيها ما يشبه المعابد وهو ما سمي بالرباطات، وأشهرها رباط عبّادان الذي ذكره أبو نواس في إحدى قصائده بقوله:

سقى الله عبّادان غيثاً مجللاً فإن لها فضلاً جديداً وأولاً
وثبت من فيها مُقيماً مُربطاً فما إن أرى عنها له متحوّلاً
إذا جئتها لم تلق إلا مكبراً تخلى عن الدنيا وإلا مهلاً
فأكرم بمن فيها على الله نازلاً وأكرم بعبّادان داراً ومنزلاً

لكن ما الذي جعل الناس ينحون هذا النحو من العبادة وهذا الاتجاه في الحياة؟ لابد وأن هناك مسببات ودواعي أدت إلى هذا، وجعلت طائفة من الناس ليست بالقليلة في بدايات العصر العباسي تهجر الدنيا ومظاهر الترف وتقبل على العبادة والتبتل. يرجع كثير من الدارسين هذه الظاهرة إلى انتشار القصص والوعاظ منذ أواخر العصر الأموي وبدايات العصر العباسي الأول، فما هي أسباب هذا التوجه ودواعيه، وما هي نتائجه وآثاره؟

أ. انتشار القصص والوعاظ:

إن إرخاء الزمام من طرف العباسيين للموالي وعلى رأسهم الموالي من الفرس، إلى جانب مساحة الحرية التي أتاحت للكثيرين آنذاك، زيادة على الرفاهية الاقتصادية ويُسّر العيش، في بداية العصر العباسي، أدت إلى انتشار الجون واللهو، والزندقة، مما أثار سخطا لدى عامة المسلمين وفي مقدمتهم العلماء. هذا الجو السائد والمتفشي أثار ردّة فعل قوية مسّت جوانب عدّة في حياة المسلمين آنذاك، وانعكست على واقع المساجد، فاكثرت بالمؤمنين الذين هربوا من واقع الحياة إلى الله. لقد كانت مساجد بغداد مثلاً «عامرة بالعباد والنسك وأهل التقوى والصّلاح، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر بالله واليوم الآخر وما ينتظر

الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم.¹ هؤلاء الوعاظ كان لهم دور بارز في دفع كثير من الناس إلى الزّهادة، والانعزال والتفرغ للعبادة. وأشهر الوعاظ في هذه المرحلة الفضيل بن عياض (ت 187هـ)، أحد وعاظ مكة، وداوود الطائي الكوفي، كان فقيها، عابدا، (ت 160هـ أو 165هـ) ومنهم ابن السمّاك، عاصر هارون الرشيد، ومن مواعظه للرّشيد قوله: «يا أمير المؤمنين! إن لك بين يدي الله، عز وجل، مقاما وإن لك من مقامك منصرفا. فانظر إلى أين منصرفك، إلى الجنة أو إلى النار. فبكى هارون حتى كاد يموت.»² وكثير من هؤلاء الوعاظ كانوا شعراء، استعملوا الشعر في توجيه مواعظهم فجاءت جميلة ومؤثرة، منهم مالك بن دينار (ت 127هـ أو 130هـ) الذي كان كثير الذكر للموت والفناء يقول في إحدى قصائده:

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا نَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمُحْتَقِرِ
وَأَيْنَ الْمَدْلُ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمَرْكَبُ إِذَا مَا افْتَحَرَ
تَفَانُوا جَمِيعًا فَمَا مَخْبَرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبَرُ

أما القصص فقد وجدوا منذ العهد الجاهلي، وكان الناس يلتفون حولهم لسماع قصص الغابرين وأخبار الأولين وأيام العرب، فكانوا وسيلة تسلية ومتعة. أما في العصر العباسي الأول فقد أصبح للقصص دور وعظمي، يتمثل في رواية أخبار الصالحين وقصص الأقوام الغابرة وهلاك القوم الظالمين. «وكان الوعظ في هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة، وهو التحام قدس منذ تميم الداري وكعب الأخبار في عصر الخلفاء الراشدين (...) وقد ازدهر هذا الوعظ القصصي في عصر بني أمية عند الحسن البصري وأضرابه.»³ وقد كثر في هذا العصر القصص الواعظون كثرة مفرطة، فكانوا يدفعون الناس إلى العبادة والزهد في متاع الدنيا.

ب. انتشار الرّباطات:

شهد العالم الإسلامي أول رباط للعبادة والتبتل في "عبّادان" بالقرب من البصرة، «حيث اجتمع في هذا الرّباط تلامذة الزاهد الكبير عبد الواحد بن زيد وانقطعوا عن الحياة متجردين لعبادة الله والوصول إلى نّج الحق.»⁴ وتلاه تأسيس رباطات في مناطق مختلفة من الدولة العباسية، حتى أن الدولة أسهمت بدورها في بنائها تشجيعا للزهاد واعترافا بفضيلتهم. «ففي أخبار

¹ تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط: 08. ص: 84.

² كتاب القصص والمذكرين. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي. تحق: محمد بن لطفي الصباغ. المكتب الإسلامي. بيروت. ط: 01. 1403هـ/ 1983م. ص: 253.

³ تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. ص: 84.

⁴ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. محمد مصطفى هدار. دار المعارف. القاهرة. 1963م. ص: 287.

الفضل بن يحيى البرمكي أنه شخص إلى خراسان في سنة ثمان وسبعين ومائة، فبنى المساجد والرباطات.⁵ لقد كان لهذه الرباطات دور أساسي في نشر ظاهرة الزهد وتطورها، حيث كان يجتمع فيها الزهاد فيذكرون الله ويعبدونه ويتقربون إليه بالنوافل والصيام ومتحافين عن متاع الدنيا، راغبين فيما عند الله من الثواب.

أدت هذه الموجة من الزهد، بفضل هذه الرباطات، إلى تطوره مما جعل منه ظاهرة لها نظامها الخاص الذي يحكمها، وجعلت من روادها من الزهاد والنسك يتدرجون في مراتب القرب من الله عز وجل، حتى أخذت تظهر بعض مقدمات نزعة التصوف متمثلة في عدد من الشيوخ، نذكر منهم: إبراهيم بن أدهم البلخي (ت 160هـ)، ورابعة العدوية (ت 180هـ)، وشقيق البلخي (ت 194هـ) الذي يقال أنه أول من تكلم في التصوف.

ت. ملامح التصوف عند زهاد القرن الثاني الهجري:

تطور الزهد في القرن الثاني الهجري فأصبح توجها له أسس ومبادئ، ولم يعد مجرد ميل فطري إلى تقوى الله وتخل عن الدنيا، أو حالة من حالات الإيمان يصورها الزاهد في شعره. لقد كثر الزهاد والعباد في هذا العصر إلى درجة أنه أصبح ظاهرة لا يمكن التغافل عنها، مما أدى إلى ظهور بعض الملامح الصوفية التي تعد من مقدماتها، وأول هذه الملامح ظهور ما يسمى "بالحب الإلهي"، وقد اشتهرت به في هذه المرحلة رابعة العدوية إذ تقول:

أحُبُّكَ حَبِّين: حُبُّ الهوى وَحَبًّا لَأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهوى فَشَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

«وهي تميز بين حبين: حب الله شكرا لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياءه، وحب لجماله وجلاله القدسي الذي رفعت الحجب والأستار بينها وبينه، وهو الحب الصوفي المجرد الذي يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة.»⁶ ومن رواد الزهد في هذا العصر عبد الله بن المبارك أحد علماء الحديث، اشتهر بنسكه وزهده وجهاده في الجيوش التي كانت تواجه الروم آنذاك. له شعر كثير في الزهد وتمجيد الجهاد في سبيل الله، وكثيرا ما كان يستشهد بقول المسيح عليه السلام: "كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا" ونظم هذا القول شعرا فجاء فيه:

⁵ تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. ص: 85.
⁶ تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. ص: 402.

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما اسد تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ومن مشهوري الزهاد ابن أدهم البلخي (ت 160هـ)، وشقيق البلخي تلميذ ابن أدهم (ت 194هـ) الذي يقال أنه أول من تكلم في التصوف وعلوم الأحوال وكان له دور في إشاعة مبدأ التوكل⁷. ومن مشاهير الزهاد في هذا العصر معروف الكرخي من أهل كرخ بغداد (ت 200هـ)، ومن ماثور قوله: "مَنْ كَابِرَ اللَّهَ صَرَعَهُ، وَمَنْ نَازَعَهُ قَمَعَهُ، وَمَنْ مَآكَرَهُ خَدَعَهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ مَنَعَهُ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لَهُ رَفَعَهُ"⁸. وهو الذي أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة⁹. «وينبغي أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج في هذا العصر، إنما أخذت مقدماته في البروز والظهور، أما تكونه التام فقد حدث في العصر التالي»¹⁰.

1. المرجعية الإسلامية:

إن ما ذكر سابقاً من مقدمات أدت إلى ظهور التصوف في العصر العباسي الثاني، دليل على أصالة الظاهرة في المجتمع الإسلامي، ذلك أن المرجعية الإسلامية واضحة من خلال الوعظ والقصص، أو ما سماهم ابن الجوزي المذكرين، الذين كانوا يذكرون الناس بالله وضرورة الإخلاص له في العبادة، والتخويف من غضبه وعذابه. كما أن أوائل الصالحين من علماء الأمة الإسلامية، بدءاً برسول الله عليه الصلاة والسلام، فالصحابة المقربون ثم التابعين وتابعيهم بإحسان كانوا مثلاً لهؤلاء المتصوفة، اتبعوا سبيلهم في الإخلاص لدينهم والتعفف عن متاع الدنيا والزهادة فيه.

لقد ظهر التصوف بمفهومه العلمي المعروف الآن، في العصر العباسي الثاني؛ أي في المائة الثالثة للهجرة النبوية الشريفة. وكانت قد سبقتها مقدمات وإرهاصات تجسدت في مجملها فيما يسمى بالزهد في العصر السابق. ولكي نمثل لهؤلاء المتصوفة الذين اتخذوا الإسلام مرجعاً ومبدأً في تصوفهم يجدر أن نذكر الحارث بن أسد المحاسبي (ت 234هـ) الذي ربط التصوف بالشرعية على طريقة أهل السنة¹¹ دعا إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدة النفس وتركيتها باتباع الكتاب والسنة. وذو النون المصري (ت 245هـ) الذي يرى «نيكلسون أنه الواضع الحقيقي لأسس التصوف، إذ هو. كما يقول ابن تغري بردي. أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات»¹² ويقال أنه سئل كيف عرف ربه؟ فقال: "عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي".

⁷ يُنظر المرجع نفسه. ص: 86.

⁸ المرجع نفسه.

⁹ يُنظر المرجع نفسه. العصر العباسي الثاني. ص: 106.

¹⁰ المرجع نفسه.

¹¹ يُنظر تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الثاني. شوقي ضيف. ص: 108.

¹² المرجع نفسه. ص: 108.

وكان يقول: "من علامات الحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه". « وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أي انفصام بين التصوف والشرعية، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية.»¹³ وهذا المتصوف وأمثاله يمثلون التصوف في مرحلة ازدهاره، أما مقدمات نزعة التصوف فأدلة مرجعيتها الإسلامية كثيرة نذكر منها:

أ- التجافي عن الدنيا والحرص على الدين:

لقد أثبت زهاد العصر العباسي الأول ونسأكه حرصهم على اتباع أوامر الدين واجتناب نواهيه بشكل مثير للاهتمام، كما أن نفورهم من متاع الدنيا وزخرفها كان سمته الأساسية، وهي أمور دعا إليها الوعّاظ الذين انتشروا في أماكن عديدة من حواضر الدولة العباسية. ومن مشاهير علماء اللغة نذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي اشتهر بالزهد والعظة، «واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوي الجاه لما في أيديهم من الدنيا.»¹⁴ ومن عظاته الدعوة إلى التجافي عن الدنيا وذكر الموت لأنه لا محالة آت ولن تشعر به حتى يفاجئك في يوم ما. ومما يدل على ذلك قوله:

عش ما بدا لك، قَصْرُكَ الموتُ لا مهربُ منه ولا قُوْتُ

بَيْنَا غِنَى بَيْتٍ وَبَهْجَتُهُ زَالُ الْغِنَى وَتَقَوُّضُ الْبَيْتِ

وقد ذكرت من قبل عبد الله بن المبارك عالم الحديث الذي ولد سنة 118هـ، وهو يعدّ من كبار الحفاظ في عصره وكانت تُشدّ إليه الرحال في عصره لطلب العلم على يديه، كان مجاهداً في صفوف الجيش العباسي، مرابطاً في الثغور عُرف بقصيدته الشهيرة "يا عابد الحرمين" ويقصد به الفضيل بن عياض الناسك المشهور التي يقول في مطلعها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

وقد جمع هذا العالم بين الزهد في الدنيا ومتاعها والعلم الشرعي، والجهاد في سبيل الله حماية لحدود الدولة الإسلامية، مثبتاً بذلك أن الزهد الإسلامي إيجابي يسعى فيه أصحابه لكسب قوتهم بأيديهم وجهدهم، كما أنهم «كانوا يلبّون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد في سبيل الله.»¹⁵ وقد كان ابن المبارك من العلماء الذين يتعففون عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا ويقعوا في شباكها.

¹³المرجع نفسه. ص: 109.

¹⁴تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. ص: 401.

¹⁵تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. ص: 403.

أ- التبتل والعبادة:

أكثر الزهاد وأوائل المتصوفين من العبادة وانقطعوا عن مظاهر الحياة الرغيدة كي لا تشغلهم أو تبعدهم لحظة عن صلتهم بخالقهم، حتى أنهم بنوا الرِّباطات لتكون خاصة بهم لا يذكر فيها غير الله، يجلسون يذكرون الله ويبتهلون ويصلون ويصومون، راجين من المولى عز وجل المغفرة والقبول، طالبين منه القرب والارتقاء في درجات الإيمان. وقد دعوا إلى عبادة الله لأنه أهل لذلك ومن ذلك قول محمد الوراق يدعو إلى العبادة والنهي عن المعصية:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه هذا محال في القياس بديع

لو كنت تضرر حبه لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع

في كل يوم يبتليك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع

وقد تفانى زهاد القرن الثاني الهجري في العبادة والتبتل والذكر والدعاء، إلى درجة لا يمكن تصورها، غير أن كتب الأوائل خلدت هذه المظاهر ككتاب البيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وعيون الأخبار لابن قتيبة. ومن رواد التبتل الزاهدين في هذا القرن «رياح بن عمرو القيسي الذي لم يكن يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله، ويرى دائما هائما بين المقابر، حتى إذا جن الليل وضع في عنقه غلافاً من حديد ثم أخذ يتضرع ويكي حتى الصباح»¹⁶

أ- التفاني في حب الله:

وصف الله تعالى نفسه في القرآن الكريم بصفات كثيرة، منها صفات العلم وصفات القوة والجبروت، فنجد منها "العليم، والعظيم، والقوي، والعزیز، والجبار، والمتكبر،.." وهذه الأسماء والصفات تحيل المؤمن على معاني ومفاهيم تدفعه إلى الخوف من الله تعالى ومن عذابه للقوم الضالين المكذبين، لذلك في بداية ظهور الزهد وانتشار الزهاد، تجدهم خائفون باكون يرجون رحمة الله ومغفرته، ذلك أنهم بالغوا « في تصوير المعاصي أيا كان نوعها، واستولى على قلوبهم الرعب والخوف من الله وعذابه، بل كان الخوف هو الباعث الأكبر في كل ما أتوا به من طاعة وعبادة»¹⁷ وشيئا فشيئا بدأت هذه الطائفة من الزهاد تقترب أكثر فأكثر من الله تعالى لتتحلى عليها الصفات الأخر له سبحانه كالخوف والعفو والرؤوف، .. فتستجلي معاني الحب والجمال في ذاته العلية، مما أدى بالمتصوفة الأوائل وأعني بهم متصوفوا القرن الثالث الهجري، لأن ينحو في التصوف منحى الحب الإلهي معبرين في

¹⁶ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. محمد مصطفى هدارة. ص: 286.
¹⁷ التصوف الثورة الروحية في الإسلام. أبو العلا عفيفي. دار الشعب. بيروت. ص: 190.

ذلك عن تفانيهم في حب الله لأنه أهل لذلك. وربما ظهر هذا الاتجاه مبكراً عند رابعة العدوية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، هذه الزاهدة التي كانت رمزاً للحب الإلهي وهي القائلة:

فليتك تحلو والحياة مريّة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

إذا نلت منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

فأصبح بعد هذا، الحب لله هو الباعث على العبادة والتبتل لدى المتصوفة وليس الخوف، ومرجعهم في ذلك آيات القرآن الكريم التي يتجلى من خلالها عفو الله ورحمته وجماله في أبهى صفاته.

لقد سمي أبو العلا عفيفي هؤلاء المتصوفة "برجال المرحلة الثانية" ويعني بها المرحلة الثانية من مراحل التصوف، ويرى بأنهم نظروا إلى الله من زاوية مختلفة عن سابقهم؛ بحيث تقوم نزعتهم الصوفية «على أساس أن أهم صفات الألوهية ليست الإرادة المطلقة المسيطرة على كل شيء، بل الجمال المطلق والحب المطلق المنبئين في سائر أنحاء الوجود. والعالم في نظرهم مظهر من مظاهر الإرادة الإلهية من غير شك، ولكنه فوق ذلك مرآة ينعكس على صفحتها الجمال الإلهي، وصورة يتجلى فيها الحب الإلهي».¹⁸

ب-الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام:

لقد دعا زهاد القرن الثاني الهجري ومن لحق بهم إلى تقوى الله واجتناب نواحيه، وحفلت أشعارهم بالحض على ذلك منها قول ابن المبارك:

رأيت الذنوب تميم القلوب ويحترق العقل إداماً

يبغ الفتى نفسه في رداه وأسلم للنفس عصيانها

«وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يُكثر من النظم في الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات».¹⁹

حرص زهاد القرن الثاني الهجري على التذكير بالله والدعوة إلى عبادته، فكان الناس يقصدونهم ويرتلون إليهم طلباً للموعظة والذكرى، وهم كثر نذكر منهم عبد الله بن عبد العزيز العمري أحد زهاد المدينة المنورة (ت184هـ) جاءه رجل يسأله

¹⁸التصوف الثورة الروحية في الإسلام. أبو العلا عفيفي. دار الشعب. بيروت. ص: 191.

¹⁹ تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. ص: 406.

الموعظة فأجابه بعد أن أخذ حصاة من الأرض قائلاً: «زنة هذه من الورع تدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض. قال: زدني. قال: كما تُحِبُّ أن يكون الله. عز وجل. لك غداً فكن أنت له اليوم.»²⁰

2. الآثار الأجنبية:

كثير من الدارسين، وخاصة منهم المستشرقون، لم يقتنعوا بأصالة نزعة التصوف وانتمائها للحضارة الإسلامية، فمنهم من ردها إلى أصول إغريقية، وآخر إلى أصول هندية وثالث إلى أصول مسيحية، وكثرت الدراسات في هذا الصدد بين مؤيد ومعارض، وموفقٍ، بيد أن الحقيقة قد تكون مختلفة في هذه الدراسات كلها تنتظر من يستخرجها ويثبتها بالأدلة والبراهين. أما هذه الدراسة فهدفها إلقاء نظرة على بعض هذه الآراء التي جعلت من نزعة التصوف دخيلة على الفكر الإسلامي.

أ. الأثر اليوناني:

ونقصد بالآثر اليوناني ما سمي في الدراسات الفلسفية بالأفلاطونية الحديثة. ومن أهم أسسها فكرة "وحدة الوجود"، التي يعتقد كثير من المستشرقين وعلى رأسهم جولدتسيهر، أن عدداً من المتصوفين بنى فكرة تصوفه عليها. «ومنذ أواسط القرن الماضي (القرن 19) يُعنى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التي أثرت في نشأته وتطوره، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كيرمر، (...) وممن شدد على التأثير الأجنبي جولدتسيهر، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود.»²¹

ووحدة الوجود فكرة فلسفية أفلاطونية، مفادها أن هذا الوجود المتعدد الأشكال صادر عن العقل الأول وتمثله، أو أنها أشكال متعددة للعقل الواحد الأول. لذلك ينكر أبو العلا عفيفي أن تكون هذه النظرية نظرية وحدة الوجود وإنما نظرية تعدد.²² ثم إنه يناقش هذه القضية ونسبتها إلى أحد أعلام التصوف وهو ابن عربي إذ يقول: «أما نظرية ابن عربي فنظرية في التجليات الإلهية: أي في الوجود الواحد المتجلي في الموجودات المتكثرة. لا في الوجود الواحد الذي فاضت عنه عن طريق الوسائط الموجودات المتكثرة.»²³

رأى فون كيرمر أن "الحلاج" وهو من كبار المتصوفة متأثر بفكرة وحدة الوجود الأفلاطونية في بحثه "تاريخ الأفكار البارزة في الإسلام"، ويرى الكاتب قاسم محمد عباس، صاحب كتاب "الحلاج الأعمال الكاملة"، بأن دراسة كيرمر كانت أكثر علمية

²⁰ كتاب الفُصَاص والمذكَّرين. عبد الرحمن بن الجوزي. ص: 239.

²¹ تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الثاني. شوقي ضيف. ص: 106 / 107.

²² ينظر التصوف الثورة الروحية في الإسلام. أبو العلا عفيفي. ص: 185.

²³ المرجع نفسه.

من سابقه وكان لقاسم محمد رأيه الخاص في هذه القضية إذ يقول معلقا على موقف كل من كريم وثولوك: «والموقف عبارة عن خلط بين نظرية فلسفية مثل وحدة الوجود، وبين تصور صوفي مثل وحدة الشهود، بفهم أن الذي يذهب إلى التنزيه المطلق لا يمكن أن يعدّ من أصحاب وحدة الوجود، مهما صرّح بعبارات قد تشير إلى هذه الوحدة، بسبب أن المذهب الفلسفي المتعلق بطبيعة الوجود الواحدة، لا يتعامل إلا مع حقيقة وجودية واحدة خلافا لأصحاب وحدة الشهود، فإنهم في التزامهم جانب التنزيه يشاهدون كل شيء في الله، إلا أنهم في الوقت ذاته يرفعون الله فوق كل شيء، ويجعلونه مباينا للمخلوقات، ثم إنهم لا يقرّون بأن الله هو الكل».²⁴

أ. الأثر المسيحي:

ربط كثير من المستشرقين الزهد، وهو أحد أبرز مقدمات التصوف في التاريخ الإسلامي، بالرهبانية المسيحية، لأن الزهاد آنذاك اعتزلوا الناس، واعتزلوا الدنيا وتفرغوا للعبادة وكأنهم في ذلك قد تشبهوا برهبان المسيحية في رهبنتهم، فوجد هذا الأمر مجالا للقول بالأثر المسيحي في الزهد الإسلامي. وهناك من رأى أن انفتاح الدولة العباسية على ثقافات الأمم المجاورة واتساعها بحيث ضمت شعوبا كانت لها دياناتها السابقة وثقافتها المختلفة، وبخاصة الثقافة الهيلينية التي كانت سائدة في منطقة الهلال الخصيب بسبب التأثير الروماني واختلاط المسيحية بالثقافات الشرقية، أدى بشكل طبيعي إلى دخول أفكار مسيحية وهندية غدت الزهد الإسلامي ومن بعده التصوف بأفكار مشابهة للرهبة وما شاكلها.

ولعل أكثر المستشرقين المتشددون في نسبة الزهد إلى المسيحية وغيرها من النحل المجاورة للدولة الإسلامية، يكون جولدتسيهر الذي يرجع هذه الآثار إلى حركة الترجمة التي نشطت في العصر العباسي والتي مكنت المسلمين من الاطلاع على أفكار وفلسفات الأمم القديمة والمجاورة لهم. «ويقول جولدزيهر إن انتشار الإسلام، وخاصة في الشام والعراق ومصر أفسح للنفوس المتعطشة هذا المجال الروحي، وخاصة بعد أن تيسر لها اكتساب تجارب في هذا المجال من مخالطة المسيحيين».²⁵

ب. الأثر البوذي الهندي والأثر الفارسي:

إن من آثار حركة الترجمة التي ازدهرت في العصر العباسي أن وردت على المسلمين كتب في ديانات وفلسفات الهند والفرس، ولأن لغة الفرس كانت مفهومة لدى عدد كبير من مسلمي الدولة العباسية ذوو الأصل الفارسي، كما أن المجالس التي كان يعقدها خالد بن يحيى البرمكي لعلماء الكلام يتجادلون في قضايا فلسفية وكلامية، ومجادلات أصحاب الملل والنحل أدت إلى تسرب عدد من أفكار المانوية والزرادشتية التي أثرت سلبا في الفكر الإسلامي مما أفرز ظاهرة الزندقة والابتداع في الدين، غير

²⁴الحلاج الأعمال الكاملة. التفسير، الطواسين، بستان المعرفة، نصوص الولاية، المرويات، الديوان. قاسم محمد عباس. رياض الريس للكتاب والنشر. ط: 01.

2002م. ص: 17، 18.

²⁵اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. محمد مصطفى هدار. ص: 284.

أن هذه الظواهر لا تمثل ظاهرة الزهد العام التي نحن بصدد دراستها. لذلك وجد عدد من المستشرقين في هذا دليلاً على رؤاهم حول التصوف الإسلامي.

أما فيما يخص البوذية الهندية فيرى جولدتسيهر أن ترجمة كتاب "بيلا وهر وبوداسف" وكذلك كتاب "البد" كان له أثر في انتشار بعض النحل البوذية الهندية وتأثر الزهاد في القرن الثاني الهجري بها. وأما الحلاج فقد كثرت حوله الدراسات الاستشراقية التي حاولت جهدها في نسبة تصوفه لأحد الروافد الأجنبية أو كلها، مثلما فعلوا مع ابن عربي. فقد «كتب هرتون مقالتين مهمتين في عامي 1927-1928، واندفع في إحدهما إلى إثبات الأصل الهندي لتصوف الحلاج، وحاول في المقالة الثانية أن يؤكد أطروحته الأولى عبر بحث المصطلحات الصوفية الفارسية بحثاً فيلولوجياً، لينتهي إلى أن التصوف الإسلامي هو ذاته مذهب الفيدانتا»²⁶ وبهذا نلاحظ كيف أن المستشرقين بذلوا جهدهم في دراسة التصوف الإسلامي، وكثير منهم حاول إثبات تأثر التصوف بمصادر أجنبية. لكن لا ننكر الجهود العلمية لبعض المستشرقين الذين كانت دوافعهم علمية أمثال فون كيرمر ونكلسون وماسينيون هذا الأخير الذي خفف من حدة القول بالتأثير الأجنبي في بحوثه عن الحلاج.

1. الخلاصة:

وخلاصة القول في هذا الموضوع أن التصوف ومقدماته أصيل في المجتمع المسلم. نشأ فيه وتأثر بمبادئه وقيمه ونبع من القرآن والسنة، غير أننا لا نعدم تأثراً بأفكار الأمم المجاورة فالأفكار تتلاقح وتتفاعل، ويتأثر بعضها ببعض وهذه طبيعة المجتمعات البشرية، لكن هذا التأثير لا يجعل من التصوف أجنبياً. "وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره، وهو الرأي العلمي الصحيح"، ولمن أراد التأكد من ذلك عليه أن يطلع على أحوال أئمة الذين أسسوا مبادئه الأولى وأشاعوها بين الزهاد والعباد والصالحين.

المراجع:

- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. محمد مصطفى هدارة. دار المعارف. القاهرة. 1963م
- تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الأول. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط: 08.
- تاريخ الأدب العربي. العصر العباسي الثاني. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط: 02
- التصوف الثورة الروحية في الإسلام. أبو العلا عفيفي. دار الشعب. بيروت.
- الحلاج الأعمال الكاملة. التفسير، الطواسين، بستان المعرفة، نصوص الولاية، المرويات، الديوان. قاسم محمد عباس. رياض الريس للكتاب والنشر. ط: 01. 2002م.
- كتاب الفصاوص والمذكرين. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي. تحقق: محمد بن لطفي الصباغ. المكتب الإسلامي. بيروت. ط:

01. 1403 هـ / 1983م Karimamehaoui.1ik@gmail.com